شخصية قد بنيت على تأملك وشعورك لا على حفظك وقراءاتك. وستتصل من هذا الطريق بأفق أوسع وملكوت أعلى

في الحديث: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا» ولعل هذا الضرب من التأمل ينبههم في حياتهم، من غير أن ينتظروا أن ينتبهوا بموتهم

وربما كان هذا ضرباً من التصوف يتفق وروح العصر، وإن شئت فقل إنه نوع من التصوف على أحدث طراز وأبدع نمط، يبعث على الحياة لا الموت، ويدعو الى النشاط والعمل لا الى الخمول والسأم، ولعل الانسان يجد في الركون اليه بعض أوقاته راحة مما رمتنا به المدنية الحاضرة من عناء، وما أرهقتنا من عنت، ولعلنا نستروح من هذا البرنامج نسيم الراحة فيراجعنا نشاطنا، وتثوب الينا قوتنا، وتعود الينا نفوسنا

أحمد أمين

عصر القصار في مصر الإسلامية

٦ـ الحاكم بأمر الله

ختام البحث

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ـ ١٠ ـ

إلى ذلك الحين سلخ الحاكم زهاء خمسة عشر عاماً في الحكم؛ وكانت فترة تحمل طابع الاضطراب والعنف والمفاجأة بما تخللها من غريب الاحكام والتطورات التي أتينا على ذكرها. ولكن الحوادث تدخل من ذلك الحين في طور آخر، ويميل العهد إلى نوع من الهدوء، ويتجه الحاكم وجهة أخرى. كان ذلك الذهن المضطرم الهائم مما لا يسكن الى ركود الحياة المادية، وكان دائماً يؤثر التوغل في عوالم الحياة الروحية. وكانت أعوام العصر الأخيرة مليئة بهذه التيارات الخفية التي تحجب عنا أغوارها ريب وظلمات كثيفة. كانت مصر في هذه الأعوام مهداً خصباً لعصبة من الدعاة الناشرين الذين هبطوا اليها يبشرون بأديان وعقائد جديدة؛ وكان الحاكم من وراء هذه الدعوات يرعاها ويرقب تطوراتها، حتى استحالت في أواخر عهده إلى دعوة جريئة إلى «ألوهته»، ونعت الحاكم عندئذ بقائم الزمان وناطق النطقاء. وقد سبق أن فصلنا عناصر هذه الحوادث والدعوات في «الرسالة» في بحثنا «الدعوة الفاطمية السرية» فلا نعود اليها هنا

وكانت خاتمة الحاكم، كحياته، خفية مدهشة؛ فقد أغاض من هذا العالم وزهق في ظروف غامضة ما زالت على التاريخ سراً عسير الجلاء[1]

* * *

وهنا نحاول، بعد أن استعرضنا أعمال الحاكم بأمر الله وغريب أحكامه وتصرفاته، ان نعرض إلى أدق وأصعب نقطة في دراسة هذه الشخصية العجيبة

ماذا كانت حقيقة هذه الشخصية التي جمعت بين خلال وصفات يحمل أكثرها طابع العنف والشذوذ والتناقض؟ وبأى عين يجب أن ننظر اليها، وبأى معيار نستطيع أن نقدر صفاتها وأعمالها؟ وأى أحكام يسوغ لنا أن نصدرها لها أو عليها؟

لدينا في ذلك مادة منوعة: أقوال الرواية الاسلامية المعاصرة والمتأخرة، وحوادث العصر، وأعمال الحاكم وتصرفاته ذاتها. فأما الرواية الاسلامية، فلا ترى في أمر الحاكم لغزاً يصعب استجلاؤه؛ ولنلاحظ أولاً أن ما انتهى الينا من أقوال الرواية الاسلامية، إنما هو في الغالب أقوال المؤرخين السنيين، خصوم الشيعة وخصوم الدولة الفاطمية؛ واننا لم نتلق من تراث الشيعة الذي يدونه الحوادث والدول الخصيمة ما يلقى ضياء كافياً على ذلك الخفاء الذي يحيط بشخصية الحاكم وأعماله. والحقيقة أن الرواية الاسلامية تأخذ بظواهر الحوادث المادية، وتكتفي بأن تقدم الينا الحاكم في تلك الصور المروعة المثيرة التي أشرنا اليها؛ وقلما تحاول أن تلتمس فيما وراء ذلك شيئاً من البواعث والأسباب التي يمكن أن نعلل بها بعض نزعات الحاكم وتصرفاته العجيبة. وقد أوردنا بعض أقوال الرواية الاسلامية في وصف الحاكم؛ فهي لا ترى فيه أكثر من أمير مضطرب العقل والتفكير، عنيف الأهواء والنزعات، كثير العيث والسفك، شديد التناقض، لا يصدر عن روية أو منطق متزن، ولا يتحرى غاية أو مثلاً معقولة. هذه هي الصورة العامة التي يقدمها الينا المؤرخون

(١) نترك هنا البحث أيضاً إذ سبق أن عالجناه في فرصة سابقة

المسلمون عن الحاكم ؛ وهى صورة بسيطة ساذجة مستمدة من ظاهر الحوادث المادية ؛ فقد كان الحاكم طاغية شديد البطش والسفك ، ولكنه كان يتخذ السفك وسيلة لا غاية ، وكان القتل فى نظره خطة سياسية ؛ وكان عنيف الأهواء والنزعات ، ولكنها لم تكن نزعات شهوة نفسية ، وإنما نزعات ذهن يرتفع عن الوسائل العادية لتوجيه مجتمع يراه جديراً بالتغيير والتطور ؛ وكان متناقضاً فى كثير من تصرفاته ، ولكن تناقض الذهن الذى يحاول مختلف الوسائل والتجارب لتحقيق غايات معينة . ومع ذلك فانه لم يفت بعض المؤرخين أن يلاحظ أن عقلية الحاكم لم تكن بتلك البساطة التى تصور بها ، فقد وصفه الذهبى بأنه كان « خبيثاً ، ماكراً ، ردىء الاعتقاد »[1] ، وهى صفات ليست من خواص الذهن المضطرب السقيم الذى يفكر دون تدبر ويعمل دون غاية

والواقع أن الحاكم بأمر الله كان عقلية مدهشة ، وكان لغزاً عسير الفهم ؛ وإذا كان قد اشكل على المؤرخين المسلمين من معاصرين ومتأخرين فلم يحاولوا فهمه ، فانه ما زال أيضاً فى بعض نواحيه لغزاً على عصرنا ، وإن كنا نستطيع أن نحاول فهمه من بعض النواحى ، وتعليل كثير من أعماله وأحكامه . ويصفه العلامة الألمانى ميلر بأنه « من أعجب وأغمض الشخصيات التى عرفها التاريخ » ؛ ويقول : « إن من يقرأ ما أورده المؤرخون المتأخرون من مختلف الأساطير والقصص يخرج بأنهم لم يفهموه ، وانهم اعتبروه مجنوناً فقط ؛ وقد جرى رأيهم فيه مجرى الحقيقة ، ولكن توجد ثمة شواهد واضحة على أن هذا الأمير الذى هو أعجب من أنجبت أسرته ، كان أشدهم اثارة للأساطير من حوله ، وأن حجاباً كثيفاً قد أسبغ على صورته فلا نستطيع أن نظفر منها إلا بلمحات »[2]

والآن ماذا نستطيع أن نقول فى قوانين الحاكم وتصرفاته ؟ وكيف ننظر اليها ؟ هل كانت فى مجموعها فورات مجنون ونزعات مخبول كما تصورها معظم الروايات الاسلامية ؟ إن كثيراً من هذه القوانين والأحكام يحمل طابع القسوة والاغراق ، ولكن من التحامل والظلم أن نصفها بالسخف المطبق ، وأن ننعت صاحبها بالجنون . ولقد ظلم التاريخ الحاكم كما ظلم كثيرا من الطغاة المصلحين ؛ وقد كان الحاكم طاغية ، ولكن مصلحاً على طريقته ؛ وكان يرمى بما يصدر من القوانين والأحكام الى تحقيق غايات معينة ، دينية وسياسية واجتماعية ، ربما خفيت على الكافة ، لأنها تتعلق بسياسة الدولة العليا ؛ ومن ثم كان الريب فى حكمتها والسخط عليها ؛ وكانت القسوة فى تطبيقها

فأما معاملة الذميين : أعنى اليهود والنصارى ، وما صدر فى شأنها من الأوامر والأحكام المشددة ، فلم تكن بدعة فى ذاتها ، ولم تكن حدثاً جديداً فى الخلافة الاسلامية ؛ ولم يكن فيها من الجديد سوى روحها ووسائلها الشديدة التى جعلت منها نوعاً من الاضطهاد المنظم . ولقد كانت الخلافة الاسلامية تأخذ بسياسة التسامح الدينى وتطلق لرعاياها الذميين الذين يؤدون الجزية حرية الاعتقاد والشعائر ؛ ولكن الذميين كانوا يلقون من الوجهة الاجتماعية دائماً نوعا من المعاملة الخاصة ؛ ومنذ خلافة عمر فرضت عليهم بعض الأحكام والقيود التى تجعلهم من الوجهة الاجتماعية أدنى من المسلمين ، وكان منها قيود تتعلق بالأزياء وركوب الخيل ، وحمل السلاح ، واقتناء العبيد[1] ؛ وكانت هذه الأحكام تتخذ فى عصور الحماسة الدينية لوناً من الشدة يختلف باختلاف الظروف والأحوال . وقد رأينا أن الخلافة الفاطمية كانت تتبع سياسة التسامح الدينى نحو اليهود والنصارى ، وأنهم فى ظلها ازدهروا وتبوءوا أرفع مناصب الثقة والنفوذ ، وأن موقف الحاكم نحوهم ، واشتداده فى معاملتهم على هذا النحو ، كان انقلاباً فى السياسة الفاطمية . وقد نستطيع أن نفسر هذا التطرف من جانب الحاكم ، بأنه نوع من الغلو الدينى له بواعثه السياسية ؛ ففى هذه المرحلة التى اشتد فيها الأمر على اليهود والنصارى ، كان الحاكم يبدى كثيراً من التعصب والغلو سواء من الناحية الدينية العامة أو الناحية المذهبية الخاصة ؛ ولكن هذه الشدة استحالت فى أواخر عصره الى نوع من اللين والرفق بالنصارى واليهود ؛ ذلك لأن هذا الذهن المضطرم يستحيل عندئذ الى ذهن فلسفى حر التفكير ، ينظر الى الأديان كلها نظرة واحدة ؛ وإن كانت السياسة العليا تحتم عليه أن يؤيد دين الدولة ومذهبها الرسمى ؛ وقد كان الحاكم ولد أم نصرانية كما قدمنا ، أفلا نستطيع أن نلمس أثر هذه الأرومة أيضاً فى هذا

(١) راجع النجوم الزاهرة (٤ ص ١٧٨)
(٢) Mülter, Der Islam I. p 628

(١) راجع هذه الأحكام فى فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١٥١

التكوين الديني المضطرب ، وفي هذا التردد بين الشدة واللين ؟ ومما يلاحظ في هذا الصدد أن موقف الحاكم ازاء النصارى واليهود هو من المواقف القليلة التي ثبت فيها الحاكم على سياسة واحدة ، وأنه لم يجنح فيه من الشدة الى اللين إلا في أواخر عصره حينما ظهر الدعاة السريون يدعون الى دين جديد وعقائد جديدة

وقوانين الحاكم الاجتماعية ؟ هل كانت تشريعاً جنونياً خالياً من كل باعث وحكمة ؟ إن الحكم على هذه القوانين يقتضي أن نفهم روح العصر وخواص المجتمع المصري يومئذ ؛ كان الحاكم بأمر الله على رأس خلافة مذهبية يقوم سلطانها السياسي على صفة الامامة الدينية ؛ وكانت هذه الخلافة تريد أن تحيط ملكها في مصر بسياج قوي من الخلال القوية التي أحاطت ملكها في المغرب ؛ ولكنها ألفت في مصر مجتمعاً متحضراً يميل الى الترف والحياة الناعمة ؛ ولم ترد أن تضيق على هذا المجتمع بادئ بدء ، لأنها كانت تخطب وده وتسعى الى تأليفه ؛ ولهذا كانت تسايره ، وتغريه ببذخها وبهائها ، وتطلق له أعنة البهجة والمرح ، وتغمره بالمواسم الفخمة والحفلات والمواكب الشائقة ؛ فكانت تذكي بذلك مرحه وخفته واستهتاره بدلا من أن تذكي فيه الخلال القوية التي تنشدها . وكانت عوامل الانحلال تجثم في قرارة هذا المجتمع الذي يخفي انحلاله تحت أثواب من الفخامة والبهجة ؛ وكانت الرذائل الاجتماعية على أشدها حينما تولى الحاكم بأمرالله ، وظهر ذلك الانحلال الاجتماعي في أشد مظاهره حينما نظمت حياة الليل ، وشهد الأمير في مواكبه الليلية مظاهر هذا الفساد الشامل . عندئذ عمد الحاكم إلى وضع هذه الخطة التي يمكن أن توصف بحق بأنها برنامج للاصلاح الاجتماعي ، ولجأ إلى تلك القوانين والاجراءات الصارمة كوسيلة لمكافحة هذا الفساد الاجتماعي الشامل ؛ وفيم تحريم الخمر ومطاردة المدمنين ، وتحريم الغناء واللهو الخليع إلا أن يكون لتقويم أخلاق الشعب ، وحماية أمواله وصحته من الاسراف والعبث ، وحماية المجتمع من ضروب الفساد التي يغرق فيها ؟ إن الأمم العظيمة في عصرنا تلجأ في أحيان كثيرة إلى إصدار مثل هذه القوانين لبث الاصلاح الاجتماعي ؛ وما عهد التحريم الأمريكي ببعيد ؛ فقد حرمت الخمر في أمريكا مدى أعوام ، وكانت تجربة اجتماعية هائلة لا تزال ذاكراها ماثلة في الأذهان ؛ وما تزال بعض الدول تحرم بعض الملاهي التي تراها خطراً على الأخلاق العامة ؛ وما تزال بعض الحكومات تحد من حريات الشعب في التجوال بالليل في ظروف معينة حرصاً على الأخلاق والأمن العام

ومطاردة المرأة والحجر عليها ؟ لاريب أن الحاكم كان يذهب في ذلك إلى ذروة الغلو والاغراق ، ولكن المرأة من أشد عوامل الفتنة والغواية ، ولا سيما في عصور الفساد والانحلال ، وقد رأى الحاكم ، في الحجر على المرأة ، والمباعدة بينها وبين الرجل في حياة المدينة ، وسيلة لمكافحة الرذيلة وحماية الأخلاق الفاضلة . أما الاغراق في تطبيق التجربة ، فهو بلا ريب أثر من إغراق هذا الذهن الهائم في كل ما يعتقد ويبتكر ؛ وإذا كنا نستطيع أن نعلل فكرة الحجر على المرأة وإبعادها عن مجتمعات المدينة ، فمن الصعب علينا أن نعلل ذلك الاغراق في تطبيقها إلى حدود من القسوة الذريعة . بيد أنه ليس من الإنصاف أن ننكر على الاجراء كل حكمة ، فمن المحقق أنه كان ذا أثر كبير في درء الفساد الشامل وتنقية حياة المدينة ؛ وإنا لنشهد في عصرنا في بعض الأمم العظيمة فكرة مماثلة في الحد من حريات المرأة الاجتماعية وردها إلى حظيرة الأسرة ، مع فرق في العصر والظروف . ففي إيطاليا الفاشستية ، وألمانيا الهتلرية ، تفقد المرأة كثيرا من حرياتها ، ويحظر عليها التبذل والتهتك في الأزياء ؛ وفي إيطاليا تلزم بألا يقل ثوبها عن طول معين ؛ وفي ألمانيا وإيطاليا يحظر اليوم كثير من ضروب اللهو الخليع ، وتمنع الحانات الليلية والملاهي العارية . ولا ريب أن الفكرة التي أملت على الحاكم خطته ، وتملي اليوم على ألمانيا الهتلرية وإيطاليا الفاشستية خطتها نحو المرأة ، ترجع في جوهرها إلى أصل واحد ، هو مكافحة عوامل الغواية والفساد التي يبثها تهتك المجتمع القسوى وإمعانه في صنوف الاستهتار والخلاعة

وأما تحريم بعض أنواع الأطعمة فقد يرجع إلى أسباب صحية لها قيمتها في ذلك العصر ، وأما تحريم ذبح الأبقار السليمة فهو إجراء ظاهر الحكمة وهو المحافظة على النسل . وأما قتل الكلاب فهو تحوط صحي لا يزال يتبع في عصرنا في جميع الأمم المتمدنة

ولسنا ندعي أننا نستطيع أن نعلل كل قوانين الحاكم وإجراءاته وتصرفاته أو أن ننفذ إلى بواعثها وحكمتها جميعاً ، فهناك كثير منها مما لا يستطاع فهمه وتعليله ؛ ولكن الذي نود أن نقوله هو أن هذه القوانين والاجراءات ، كانت عكس ما تصورها الرواية

الاسلامية بأنها نزعات طاغية مضطرب الذهن ، تكون فى مجموعها برنامجاً إصلاحياً شاملا ، وترمى فى مجموعها إلى تحقيق غايات لا ريب فى حكمتها وسموها

يقول العلامة دوزى : « لم تكن قوانين الحاكم سخيفة كما يحب أن يصورها الرواة السنيون الذين اعتادوا أن يقدموا الينا من هذا الأمير شخصية مضحكة لاصورة حقة » ثم يقول : « ولقد أراد الحاكم أن يكافح الانحلال الشامل الذى سرى إلى مجتمع عصره بقوانين بوليسية صارمة ، وأحياناً غريبة شاذة » ثم يشرح رأيه بعد ذلك على ضوء هذه القوانين والأحكام المختلفة ، ويحدثنا بعطف عن تواضع الحاكم وتقشفه[1] ويقول ميلر بعد أن يلخص قوانين الحاكم الاجتماعية ، « إن هذه التصرفات ليست كلها تنم عن الحماقة ؛ وإذا كنا لانستطيع أن نعلل كل أعماله ، فليس ذلك مما يحملنا على أن نعتبر تصرفاته فورة أهواء مستبد ، ولا سيما ونحن نراها فى نواحى أخرى سليمة معقولة . وكل ما وصلنا من الروايات إنما هو وقائع مجردة ، مشوهة ومبالغ فيها بلا ريب ؛ وإنه ليكون من المدهش اليوم أن نستطيع أن نحل رموز هذه المعضلة الشاملة » ثم يقول : « وليس لدينا إلا أن نعتقد أنه إما باطني متعصب ، توهم فى نفسه الاغراق والالوهية ، وإما أمير ذكى بارع فى تاريخ أسرته ومذهبها ، واعتقد انه يستطيع أن يسمو فوق البشر وأن يحتقرهم ويصنفهم كالشمع طوع إرادته . وربما كان يجمع فى طبيعته المتناقضة بين شئ من هذا وشئ من ذاك . وربما لايستطيع أن يظفر بالحقيقة هنا سوى خيال شاعر »[2]

والخلاصة أن الحاكم بأمر الله لم يكن تلك الشخصية الوضيعة الساذجة ، ولاتلك العقلية المخرفة التي تقدمها الينا الرواية ؛ ولم تكن أعماله وأحكامه ، كما صورت على كر العصور ، مزيجاً من النزعات والأهواء الجنونية ؛ إنما كان الحاكم لغز عصره ، وكان ذهناً بعيد الغور ، وافر الابتكار ؛ وكان عقلية تسمو على مجتمعها وتتقدم عصرها بمراحل . وكان بالاختصار عبقرية يجب أن تتبوأ فى التاريخ مكانها الحق

تم البحث

النقل ممنوع

محمد عبد الله عنان

المحامى

(١) Dozy : Essai sur l'islamisme P. 287 & 288

(٢) Müller; ibid; P. 630

سقراط والعالم الاسلامى

للدكتور إبراهيم بيومى مدكور

فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد لهجت ألسنة الأثينيين باسم حكيم لا كالحكماء ، وفيلسوف لا كالفلاسفة . لا يتفق شكله وزيه مع جلال الحكمة ، ولا يتلاءم أصله ونسبه مع عظمة الفلسفة . فقد كان أفطس الأنف ، مرسل الشعر فى غير انتظام ، حافى القدمين ، حاسر الرأس ، مرتدياً كساء غليظاً . أبوه نقاش وأمه قابلة : مهنتان ليس لهما من الشرف نصيب كبير[1] وهو مع هذا يناقض أهل أثينا ، ويبين خطأهم ، ويسفه أحلامهم ، دون أن يدعى الاتيان بجديد ، أو تعليم الناس مالم يعرفوه . أجل لم يك هذا الفيلسوف رئيس مدرسة يجتمع فيها الطلاب ، ولا صاحب نظرية محدودة يتدارسها الأتباع والتلاميذ . بل كان يبعث حكمته فى الأسواق والطرقات ، ويلقى درسه أمام الحوانيت وفى ملاعب الشبان . وما كان هذا الدرس وتلك الحكمة إلا إعلانه دائماً أنه لا يعرف شيئاً ، وترديده لهذه الجملة المأثورة : « اعرف نفسك بنفسك »[2] . ذلكم الحكيم الغريب شكله ، القبيح منظره ، الشاذة تعاليمه وطريقته ، هو سقراط الذى نهج بالفلسفة منهجاً جديداً ، وكان على رأس طوائف فلسفية متعددة ومتباينة[3]

بين فلاسفة الأغريق ثلاثة أسماء لا يكاد الانسان يذكر واحداً منها إلا وحضر بذهنه الآخرون . ومن ذا الذى يلفظ اسم أفلاطون دون أن يخطر بباله أنه كان تلميذاً لسقراط وأستاذاً لأرسطو ؟ أو من ذا الذى يتكلم عن سقراط ولا يلحظ تلميذه أفلاطون وتلميذ تلميذه أرسطو ؟ وفى الحق إن هؤلاء الحكماء الثلاثة يكمل بعضهم بعضاً : تضافروا على تكوين نظرية مشتركة نشأت بين يدى الأول ، وترعرعت لدى الثانى ، وأخذت شكلها الكامل عند الأخير . فكلهم أنزل الفلسفة من السماء الى الأرض وعنى بالانسان فى تفكيره وسلوكه أكثر من عنايته بالشؤون

(١) Bréhier, Histoire de la philosophie, I, 89 — 60.

(٢) Rivaud, Les grands courants de la peusée antique, 72 — 73.

(٣) Bréhier, vp. cit., I, 89.